HEBA NASRY

دامس

رفيف أحمد ياقدي

دار رماد للنشر والتوزيع

حارس

رفيف أحمد ياقدي

اسم الكتاب /دامس

المؤلف /رفيف أحمد ياقدي

تصميم الغلاف /هبه نصري

تصميم داخلي /رانيا السفوت

تنسيق وتعبئة /آلاء نبيل

مؤسسة الدار/مني عيد

نائب مدير الدار/أسماء شمس

https://www.facebook.com/profile.php?id=10008990149

1390&mibextid=ZbWKwL

https://www.facebook.com/groups/1339228386579810/

?ref=share_group_link

https://www.facebook.com/mona.emansour?mibextid=Z

bWKwL

في قديم الزمان ، كان هنالك رجل يحيا في قرية نائية ويعمل في حياكة السجاد على آلة كانت الوحيدة بالقرية ، وكان سكانها يدعونه بسيد القرية ، لكرمه على كل الأهالي، فقد كان يحيكَ لهم السجاد الجديد ،ويصلح القديم بدون أخذ ولا دينارواحد ، عكس أصحاب الأرزاق الوفيرة كتاجر القمح والتفاح اللذان لا يُخرجا حتى لفقراء القرية سوى الفُتات.

كان الرجل بعدَ أن ينتهي من حياكة كل السجاد يستأجر عربة لنقلها للمدينة التجارية لبيعه ، وبعد أن حالفه الحظ بتلك المدينة التي كانت تدعى مدينة الحظوظ ، وجنى نقوداً تكفيه للزواج ، تزوَّج ابنة جاره العجوز ، فأصبحت زوجته تساعده في الحياكة بعد أن علَّمَها ، وبعد سنة من زواجه رُزِقَ بمولود أسماه دامس.

لأنَّ سفره كان يُكَلِّفه نقوداً إضافية بدءاً من أجرة الذهاب والإياب مع اضطراره للمبيت في أغلب الأحيان حينما لا تُباعُ

بضاعته بنفس اليوم ، قرَّرَ شراءَ بيتٍ في المدينة مبنياً من الحجارة.

لطالما حَلِم بامتلاك بيتٍ في المدينة ، لجمال بيوتها من الخارج عكس بيوت القرية المبنيَّة من سَعْف النخيل .

جاء يوم ذهابه إلى تلك المدينة لنقل بضاعته ، فطلب من زوجته السفر معه كي يأخذَ مشورتها في شكل البيت الأفضل فوضع دامس عند أبيها ، وعلى الرغم من نصيحته له بالسفر عند شروق الشمس ، لكنه أصرَّ على السفر بمنتصف الليل ، لكي ينهي أشغاله قبل الغروب ، وفي طريق الذهاب اعترض مسيرهما قُطَّاع طُرُق ، للسَّطو على كل ما يحملاه من نقود وبضائع ، ولأنَّ كل النقود التي جناها بحياته كانت بحوزته آنذاك ، حاول مقاومتهم فطعنوه على الفور وعندما لاذت زوجته بالفرار لحقوا بها وأوجزوا عليها .

في فجر اليوم التالي سافر تاجر التفاح لنقل بضاعته إلى المدينة التجارية ، فرأى جُثَّتيهما فدفنهما على الفور ، وعند عودته أعْلَمَ سكان القرية بوفاتهما.

بعد سنة من وفاة والديّ دامس ، توفيَّ جده الذي كان يرعاه بكل حب ، فقرر سكان القرية رعايته بالتناوب كما لو أنه من صلبهم ، لأجل والده الذي كان يعتبرهم جميعاً من عائلته.

كان الأهالي يتناقلونه ، فيبات بكل كوخ بضعة أيام، لضيق حالهم المادي وعدم قدرة عائلة أن تتكفَّل به بمفردها ، إلى أن أصبحَ بعمر الاثني عشر سنة ، حينها أعادوه للمبيت بكوخ أبيه ، وبدأ كل واحد من أهالي القرية يحاول تعليمه مهنته لكنه كان وبكل مرة يهمُّ لأي عمل بنشاط وحيوية ، يتعرض لحادث يؤذيه ، فمرة عمل راعياً لبضعة أغنام ، فهجم ذئب عليه دوناً عن الأغنام ، ولو لا أنَّ صيادين كانوا بالجوار وسمعوا صراخه، فأنجدوه بآخر لحظة، لكانت تهشَّمَت أقدامه.

اضطر إلى ترك العمل وخلدَ إلى الراحة بضعة أشهر بعد أن أحضروا له حكيماً من المدينة ، فاعتنى به كل من اعتاد على رعايته ، فقد كانت تتناوب النساء اللواتي كُنَّ يرعَينَه منذ طفولته ، على الطهو له وتنظيف كوخه ، وبعد أن استعاد عافيته ، ذهبَ ليتعلم تصليح الأكواخ و أثناء صعوده ليقطع ورقة من أعلى شجرة النخيل ، سقطَ أرضاً فانكسَرَت كليتا يديه لأنه حاول أن يحمي وجهه بهما .

عاود أهالي القرية الاعتناء به مشفقين عليه وكل واحد يقول في قرارة نفسه:

ياله من مسكين و قليل حظ منذ أن أتى إلى الحياة.

إلى أن تعافى ، فقام تاجر القمح بأخذه معه لحمل أكياس القمح مع بقية الرجال كي يقوى جسده بعد ذلك ويعمل بالعتالة عنده طيلة حياته ، لكن ولأول مرة أُصيب القمح

بأكمله بالتسَوّس ، فثار الرجل عليه وكأنه هو من قام بإتلافه عندما قال له : لقد امتدَّ نحسكَ وحظَّك العاثر إلينا .

وبعد أن سمع سكان القرية بطرده لدامس ، قام تاجر التفاح بأخذه معه إلى حصاد التفاح فكان ولأول مرة في تاريخ حصاده مأكولٌ من الديدان بأكمله ، فصرخ بوجه دامس قائلاً:

كان تاجر القمح محق ، يجب أن لا تعمل عند أحد من الآن فصاعداً ، فلم يمت والداكَ إلا لأنك أتيتَ إلى هذه الحياة فأنتَ سبب مقتلهما يا وجه الشؤم .

عاد لكوخه يبكي مكسور الخاطر، وجلسَ يمعن النظر بآلة أبيه ، وتذكر أنه سمع ذات مرة أحد الرجال يتكلم عن براعة أبيه في حياكة السجاد لكنه لم يُعَلِّم أحداً تلك المهنة ، فقرر أن يرجو سائق العربة أن ينقله لمدينة الحظوظ ، لعله يجد

أحد يجيد العمل على الآلة ، ويبيعها له مقابل أن يعلمه كيفية استخدامها .

و افق سائق العربة على نقله دون أجرة بعد أن قال له :

عندما كان والدكَ على قيد الحياة ، أقرضني نقوداً ولم يُطالبني بسدادها ، لذلك سأعتبر توصيلكَ للمدينة التجارية سداداً لدين أبيك .

حلَّقَ قلبه فرحاً طوال الطريق ، و أيقنَ أنَّ النحس قد زال عنه ، بفضل آلة أبيه ، لكنه لم يعلم ما كان يحيك له سائق العربة .

ما إن وصلا لمدينة الحظوظ حتى صرخَ السائق :

يا أهالي المدينة الكرام ، أودُّ بيعَ هذه الآلة التي ورثتها عن أبي ووضع هذا اليتيم للمبيت والعمل عند أحدكم .

ثم قصَّ لهم ما حدث بعد وفاة والد دامس إلى النحس الذي سببه لأهم تجار القرية ، فتقدَّم رجل وكانَ صاحب المقهى وقالَ على مسامع الناس :

عُرِفْتُ أنا وأجدادي بالجود والكرم ، ولذلك سآخذ هذا الصبي للعمل والمبيت في المقهى لحراسته .

ثم تقدَّم رجل آخروقال : لأني أعمل في مهنة الحياكة ، فآلتك هذه أصبحت قديمة ولا تُقَدَّرسوى بعشرين دينار.

و افق السائق على الفور وحلَّق فرحاً ، ولم يكن يعلم أنَّ الآلة نادرة و ثمنها يُقَدَّربخمسمئة دينار، وعندما حاول دامس أن يقول أنَّ الآلة لوالده ، همس السائق بأذنه وهدَّدَه بأن يتهمه بالسرقة ، ويَزجَّ به في السجن ، فهو صبي صغيرلن يصدقه أحد.

ذهب إلى العمل في المقهى ، ومنذ اليوم الأول استعبده مالكها ، فلم يسمح له بالراحة سوى بضع دقائق طوال اليوم من

الصباح الباكر لمنتصف الليل ، ثم يقفل المقهى عليه كي ينام بضعة ساعات ، فقضى أيامه فيها كالمسجون.

وبعد مضي بضعة أيام ، أتى إلى المقهى أغنى زبائنها ؛ رجلٌ يعمل مستشاراً لحاكم المدينة ، وكالمعتاد طلب كأساً من الشاي ، فهرول صاحب المقهى لإعدادها وطلب من دامس أن يقوم بتقديمها كي يريه أنه يقوم برعاية الأيتام ، ولأنَّ دامس قد ناله من التعب في الأيام الفائتة ما أرهقه ، تعثَّر أثناء مسيره وأوقعَ الشاي على الأرض أمام المستشار، فتلوَّثت أطراف عباءته ، مما جعل صاحب المقهى يهرول ويركل دامس لكن المستشار أمره بالتوقف على الفور .

جلس دامس في الخارج أمام المقهى ، يبكي بصمت وخوف لأنه سيتسوَّل في الشوارع والطرقات إلى أن يجمع نقوداً تعيده إلى القرية ، و أثناء ذلك كان الحاكم يسأل صاحب المقهى عن أهل دامس ، وبعد أن حكى ما قاله سائق العربة ، خرج المستشاروطلب من دامس أن ير افقه لقصر الحاكم ، و أثناء

مسيرهما بالعربة ، سأله عن سبب مجيئه إلى المدينة فأخبره بكل ما حدث بدءاً من وفاة والدَيه انتهاءاً بسرقة آلة والده من قِبَل السائق ، وما إن انتهى من حديثه حتى وصلا إلى القصر.

عندما نزَلا من العربة ، كادت أن تتمزق جفونه من الدهشة لبراعة وجمال تصميم القصر وضخامته ، وما إن فُتِحَت أبو ابه حتَّى حلَّق بناظريه يميناً ويساراً ، فرأى الثريَّات العملاقة التي تغطي سقف الممرات ، والأرض اللامعة التي حَسِبَها أنها مُغَطَّاة بالمرايا عندما رأى نفسه بها ، عدا عن المنحوتات المُصطَّفة على جانبي الممرات واللوحات الفنية المتنوعة التي تُزَيّن الجدران .

عندما وصلا إلى جناح الحاكم ، طلب المستشار من الخادم أن يصطحبَ دامس إلى المطبخ ويطلب من الطبَّاخ أن يُحَضِّر له مالذ وطاب من الطعام ، ثم دخل ليقابل الحاكم ويقصَّ له ما حدث . بعد مضي وقت خرج المستشار وطلب من الخادم أن يصطحب دامس إلى السوق ويشتري له ملابس

جديـدة ثـم يُدخلـه إلـى الاسـتحمام ، ويحضـره بعـد ذلـك إلـى الديوان .

بعد أن استعدَّ دامس لمقابلة الحاكم قال له المستشار:

سـتدخل الآن إلـى حـاكم المدينـة ، وعليـك أن تتحـدث معـه بلباقة.

دخل وهو مطَأطِئ الرأس ، فقال له الحاكم:

لقـد سـردَ لي المستشـاركل مـا حـدث معـك، أتعلـم يـا بني بـأني قـد عانيتُ في طفولتي مثلما عانيتَ أنت .

اتَّسَعَت حدقتا عينيه من الدهشة ، فأكمل :

لقـد تـوفي والـدايَ و أنـا في عمـر صـغيروتعرَّضـتُ للظلـم والقهـر ولـو لا أنَّ رجـلاً سـاعدني ودرَّسـني واهـتم بـي لمـا أصـبحتُ حاكمـاً لكـن هـذا الأمـر سـرٌّبيني وبينـك لا أحـد يعرفـه على وجـه هـذه الأرض سـواك ، فـاحتفظ بـه لنفسـك ولا تفشـيه لأحـد ، وخـذ

هـذه بضـعة دنـانيرواذهـب مـع الخـادم إلى السـوق واشـتري أكثر شيء يعجبك ، ثمَّ عد وأرني ما اشتريت .

ذهـب دامـس وهـو سـعيد لأنـه يحمـل سـرَّالحـاكم أكثـر مـن سـعادته بالـدنانير، لكنـه لـم يكـن يعلـم أنَّ الكـلام الـذي قالـه الحاكم كان من تأليفه لغاية في نفسه.

عنـدما توغَّـل مـع الخـادم داخـل السـوق ، أتـى الحـارس الشخصـي للحـاكم ، وقـال للخـادم :لقـد احتـاجوكَ في القصـر فجأة ، وأرسَلَني الحاكم عوضاً عنك لاصطحاب دامس.

ثـم أكمـل مسـيره مـع دامـس ، فـإذا بـه توقـف وهـو ينظـر إلى دُكَّان ممتلئ بشتى أنواع الكتب ، فقال للحارس :

أريدُ أن أشتري بهذه الدنانيركتاباً يعلمني القراءة .

دُهِـشَ ممـا سـمع فابتسـم ودخـل معـه ، وأخـذ مـا أراد ، وفي طريق العودة قال الحارس:

سَمعتُ أنَّ الحاكم قد أسرَّكَ على أمر، هلاَّ حكيته لي ؟!

لا صحَّة لما سمعت يا سيدي ، فما أكثر الأشخاص الذين يثرثرون كلاماً لا صحَّة له.

أنتَ مخطئ يا دامس ، فأنا سمعتُ هذا الكلام من الحاكم شخصياً .

إذاً اسأله ياسيدي ، واسمع الجواب بنفسك.

لم يستطع أن يخفي ابتسامته بسبب إعجابه بِرَدِّ دامس وعندما وصلا لجناح الحاكم، طلب الحارس من دامس الانتظار خارجاً ، ثم دخل وأخبره بِرَدِّ دامس وبالكتاب الذي اشتراه ، فَدُهِشَ الحاكم مما سمع ، وقال له :

استمرّفي الإلحاح عليه ، وضاعف المبلغ لمئة دينار،فهذا أول صبي طلبت منه شراء ما يحلو له ، واشترى كتاب . ثم خرج وقال لدامس : الحاكم بانتظارك .

دخل دامس وعيناه تضحكان وهو ينظر إلى الكتاب فقال له الحاكم : أرني ما اشتريت .

أقبل دامس نحوه وبدون أن يرفع ناظريه انحنى أمامه وأعطاه الكتاب ، فأخذه الحاكم مبتسماً ابتسامةً خفيفة وتصفَّح بضع ورقات ثم قال : تريد أن تتعلم القراءة ؟!

ردَّ بلهفة و ابتسامة : نعم سيدي ، أودُّ تعلم القراءة وبشدة .

لكن يا بني ، لن ينفعكَ هذا الكتاب دون مُعَلِّم .

اكتسى الحزن وجهه بلحظة ، وتساقطت دمعته ، فقال له الحاكم على الفور :لا تبكي يا دامس ، فأنتَ ستحيا في هذا القصر إلى أن تُكمِلَ الثامنة عشر ، بغرفةٍ خاصةٍ بك بها كلُّ ما تحتاجه ، ولأنك اشتريتَ كتاب، سأعيّنَ معلماً لك يعلمك القراءة والكتابة والحساب ، ولغة بلاد العجم .

حينها رفع دامس رأسه وقال للحاكم بدهشة عارمة :

لكن ما المقابل لكل هذا يا سيدي ؟!

تنهَّدَ الحاكم ، ثم قال :بدون أي مقابل يا دامس ، فكما قلتُ لك سريّ ، بأني قد عشتُ نفس حياتك ، ولذلك سأساعدك.

مضَت ستة أشهرعلى دامس كانت من أروع أيام حياته ،لكن لم يكن يُدايقه إلا الحارس الشخصي للحاكم ، فلا يمضي يوم إلا ويسأله عن السر الذي حكاه له الحاكم ، وهو يردُّ بنفس الرد الأول ، إلى أن عَرَضَ عليه راتب مئة دينارشهرياً إلى أن يُتِمَّ الثامنة عشر، مقابل بَوحه بالسر، مع استمرار بقاءه في القصر، وبدون أن يعرف الحاكم أنه قام بإفشاء سره ، لكنه لم يستطع أن يؤثربدامس ولا بمقدارشعرة فاستمرَّعلى قول : اسأل الحاكم إن كنتَ تريد الإجابة .

كان الحارس يذهب كل يوم ويُخبِرالحاكم بِرَدِّ دامس فيسعد كثيراً بما يسمع ، إلى أن قال في قرارة نفسه:

-قمت برعاية أيتام كُثُر أفشوا الأسرار التي ألَّفتها مع بضعة دنانير وببضعة أيام، إلا دامس .

حينها أيقنَ الحاكم أنَّ دامس هو من أفضل الفتيان الذين رعاهم بالقصر ،فأمرَ الحارس أن يتوقف عن سؤاله ، وقرَّر في ذاته أنه سَيُبقي دامس في القصر حتى بعدَ أن يُتِمَّ الثامنة عشر.

مضَت ست سنوات على دامس، منع نفسه بها من أن يقول للحاكم أبي ، فقد شعر بعطفه عليه كما لو أنه ابنه الحقيقي . وبعد أن أتمَّ الثامنة عشر ألَّفَ كتاباً عن الصحة النفسية ، وهرول إلى الحاكم كي يهديه إياه قبل خروجه من القصر، وقال بدون أن يعي : أبي لقد ألَّفْتُ كتاباً .

كادت أن تتمزق جفون الحاكم مما سمع ، فنهض من عرشه ثم مشى بضع خطوات نحو دامس ، الذي كان قلبه يرتعش خوفاً من أن يصفعه لأنه تجرأ على عدم مناداته سيدي ،

فقال:ألتمسُ عفوك يا سيدي ، و أقسمُ لكَ أني لم أقل لك أبي إلا لأني شعرتُ بعطفك كما لو أنك والدي حقاً.

لكن الحاكم احتَضَنه وتساقطت دموعه بصمت ، ثم مسح وجنتيه و قال :لا عليكَ يا بني ، وأرجو أن تناديني من الآن فصاعداً أبي ، فأنتَ ستبقى في القصر بجانبي طوال حياتك .

شعرَ بأنَّ قلبه يحلق فرحاً وهو يقول :لكنك قلتَ لي أني سأحيا في القصر إلى أن أُتِمَّ الثامنة عشر.

كان ذلك قبل أن أتأكد أنَّك فتىً عكس كل الفتيان الذين رعيتهم ، فقد كنتُ أتمنى أن يحتفظَ أحدهم بسري ، لأعتبره ولدي وأطلب منه مناداتي أبي ، لأني لا أُنجِبُ أطفالاً على الرغم من أني تزوجتُ عدة مرات ، إلى أن أجمع الأطباء بأني عقيم، فقد كنتُ أُرسِلُ مستشاري كل شهر ليتفقَّدَ أحوال الرعية ويسمع شكواهم ومطالبهم، ويرى إنْ كان بينهم يتيماً دون سن الثامنة عشر ولا معيل له ، فيأتي به إلى القصر، ثم

أعطه بضع دنانيركي يشتري أكثرشيء يحلوله ، وعلى إثرما اشتراه سيكون مستقبله فيما بعد ، فإن اشترى شيئاً مصنوعاً من خشب ، أُعَيِّنُ له أمهر النجّارين كي يعلمه المهنة ، وإن اشترى شيئاً مصنوعاً من حديد ، يتعلم الحدادةَ وهكذا ، أما إن كانت اليتيمة فتاة يتم تعليمها القراءة والكتابة والحساب والطبخ والخياطة ، وتبقى في القصر حتى بعد أن تتم الثامنة عشر إلى أن أجد لها زوجاً صالحاً.

ثم طلب من دامس الجلوس ، وتركه لدقائق مذهولاً لا يقوى على النطق ، وجلس يقرأ أوَّل صفحات كتابه ، وفجأة لاحت له فكرة.

كتب دامس في أول صفحة بكتابه:لوكان قدرك أن تخسر أغلى الناس على قلبك ، وباتت حياتكَ سوداء قاتمة وأصبحتَ ترى الناسَ وحوشٌ ضارية بسبب إيذائهم لك أيقن أنَّ ذلك من كرم الله عليك ، فقد وضع تلك المعاناة في طريقك ، ليوصلك إلى من يُعَوّضك براحة وفرحة تُنسيكَ أنك

قد عانيت بحياتكَ يوماً ما ، لكن يجب أن لا تستسلم لحزنك بل أن تسعى وتعمل لكي تصل لراحتك وكلك أمل بأنَّ جروك سَتُشفى في يومٍ ما ، وأخيراً والأهمُّ أن يكون قلبك نقيَّاً كالأطفال ، وروحكَ طاهرة لم تتلوّث بالحقد على من آذاكَ.

لم يُصدّق الحاكم أنَّ تلك الكلمات خرجت من دامس فقال :

بني أريدُ أن أسألك سؤالاً لطالما أهلكَ قلبي وأرهقَ روحي فلم أستطع حتى سؤاله لحاشيتي على الرغم من محبَّتهم لي ، لأني كنتُ أرى أنَّ البَوحَ بما يرهقني ضعفاً، وكيفَ أضعفُ و أنا رجل قبل كوني حاكم ؟

ردّ دامس بعينين حزينتين :قل أبي.

تنهّد ثم قال :بني ، لطالما دعوت الله ورجوته أن يرزقني ذكراً يُناديني أبي ، وبعدَ سنواتٍ يَئِسْتُ من الإجابة ، فأصبحَت دعواتي بأن يرزقني بذكر أو أنثى، لكنه لم يُجِب ، فبدأتُ بالسَّخطِ والشكوى من قَدَري ، لأني وعلى الرغم من كوني

حـاكم قـادرعلى الظلـم والأذيّـة ، لكني لـم أظلـم أحـداً مـن الرعيّـة ، بـل كنـتُ مُحِبَّـاً لهـم كريمـاً علـيهم ، وكنـتُ أخـاف الله بهـم ،فكيـفَ يكـون جـزاء إحسـاني مـع النـاس وحُسْـنِ أخلاقي هـو الحرمان من فلذة كبدي ؟!

إلى أن راود لـذهني فجـأة بـأنْ أُرسِـل مستشـاري كـل شـهر عوضـاً عـن سـتة أشـهر للبحـث عـن أيتـام ، وإحضـار اليتـيم إلى القصـر عوضـاً عـن وضـعه مـع عائلـة ذاتَ سـمعةٍ طيبـة والتكفـل بـه وكـلُّ ذلـكَ كـان لأنسـى همي بهـم و أنـا أتأمـل أن يحفـظ أحـدهم سريّ لأناديه بولدي ، وأسمع منه كلمة أبي .

تنهّـد دامـس ثـم قـال بابتسـامة خفيفـة :يـا أبـي ، مـا حرمـك الله مـن الأولاد إلا مـن كرمـه عليـكَ وعلى الآلاف مـن الأيتـام ، فربمـا لـو رزقـك الله بولـد ، لأصـبح عاقّـاً بـك، وجعـلَ حياتـك بائسـة كئيبـة ، ونـزع الحنـان مـن فـؤادك وأعمى عينـاكَ عـن رعايـاك ،وربمـا أصـبحتَ ظالمـاً لخـذلانك مـن أغلـى النـاس ، فسـاءت أحـوال رعيّتـك ولـم يكفّـوا عـن الـدعاء عليـك، فيزيـد دعـائهم

قلبك ضيّقاً وهمَّاً وتأتيك الهموم والأحزان من كل حدبٍ وصوب ، فتكون بذلك قد نلتَ عقاباً في الدنيا قبل الآخرة .

صمَتَ لبرهة وتابع : ثم يا أبي ، حتى لو قمتَ بوضع اليتيم عند عائلة تكفله هل أنتَ ضامن أنهم لن يعذبوه أو يستعبدوه ؟! ، فلا أحد يعلم مايدور في البيوت ، وما يجولُ في القلوب والعقول إلا الله ، فقد حرم الأطفال من أهاليهم ليعوّضهم برعايتك وعطفك وكرمك ، فربما لو لم يكونوا أيتام لعانوا من الجوع والفقر مع والدَيهم ، وربما لضيق أحوال الوالدَين ، عامَلوا أولادهم معاملةً سيئة ، مما سيجعل من هؤلاء الأطفال سلبيَّين وكئيبين بسبب أقرب الناس إليهم ، فيكبروا على تلك الحال؛ وعندما يتزوجوا يُعاملوا أبناءهم بنفس معاملة والدَيهم ، فينشأ جيلٌ كئيب وهَلُمَّ جرَّاً .

ثم صمتَ لبرهة وتنهَّد وقال بابتسامة :وأخيراً يا أبي عليكَ أن تعلم أنَّ كل معاناتك تؤجَر عليها ، وأنَّ الله قد عوَّضكَ بي وعوَّضني بك ، فأرجو أن تكون قد وجدتَ الجواب بسؤالي.

ولأنَّ طوال حديث دامس ، كان الحاكم يُحملَق به بدهشة استغرق ردّه بضع دقائق :لقد فهمتُ الآن سبب حرماني يا ولدي ، فسبحان من سخرَّك لمداواة حزني ومنذ هذه اللحظة سأدعوك بطبيب الروح ، وسأُعيّنكَ بقرار رسمي، لتداوي أحزان حاشيتي والجنود والخدم والرعيَّة .

لم يكتفِ الحاكم بإصدار قرارٍ بتعيين دامس ، بل قام بافتتاح جناحٍ خاصٍ به في القصر، حدَّدَ له ثلاثة أيام بدوام ثماني ساعات ، ليأتي إليه حاشيته والجنود والخدم ،ثم أمر بطباعة مئة ألف نسخة من كتابه، وطلب منه إهداء نسخة لكل من يزوره ، وأمرَ بشراء أكبر محل في ساحة المدينة و افتِتاحه باسم مركز رعاية الروح لأهل المدينة ، وتعليقِ منشور بجانبه كُتِبَ به:

هنا طبيب الروح دامس ، الذي تمَّ تعيينه من الحاكم شخصياً، وهو تابع لحاشيته ، تأتون إليه وتبوحونَ بأسراركم أربعةَ أيام في الأسبوع ، وتأخذون الحلول بدون دفع ولا نصف دينار.

ثم خصص له راتباً شهرياً يُعادل راتب أعلى المسؤولين في حاشيته.

كانت سعادة دامس لا توصف ، وبدأ بمباشرة عمله على الفور . مضَت أشهراً استمع بها دامس لشتى أنواع الهموم .

كان يعتقد أنَّ الفقراء فقط هم من يعانوا من الأحزان ، لكنه عندما رأى أنَّ أغنى أغنياء المدينة لديهم من الأحزان ما يُعكّر حياتهم ، كوَّنَ أفكاراً جديدة عن مشاكل النفس البشرية وبعد سنة قامَ بتأليف كتابٍ آخر مفاده :

حتى لو كنتَ تعتقد أنَّك الوحيد الذي تعاني في هذه الحياة وأنَّ همومك لم يعش مثيلها أحدٌ سواك ، أيقِنْ أنَّ هناك

إنسانٌ في مكان ما ، يرجو الموت في أي لحظة من فرط أحزانه وهناك إنسان يتمنى أن يُصاب بفقدان الذاكرة كي ينسى ما عاشه ذات يوم ، وهناك إنسان إنْ عرف معاناتك سيحسدك عليها ويتمنى أن يحمل أحزانك عنك مقابل أن يتخلَّص من أحزانه .

فأمر الحاكم بطباعة مئة ألف نسخة منه ، وعاودَ دامس إهدائها لكل من يزوره.

في بداية الأمر شعرَ وزراء الحاكم وقادة الجيوش ، والمسؤولين المهمين بالغيرة والحقد على دامس للميزات التي أعطاها الحاكم له ولمحبَّته به ، فحاولوا بشتّى الوسائل الإيقاع به وتحريض الحاكم عليه بالحيَل والمكر والخداع ، لكنه لم يُصدق أحداً منهم وقام بتوبيخهم واحداً تلو الآخر بقوله :

-هـذا بُني ، والابـن لا يخـون أبيـه ولا يُلَطِّـخ سـمعته ، لكـن إنْ عـاودْتَ تلطـيخ سـمعته فهـذا يعنـي أنَّ كلامـك موَجَّـهٌ لـي شخصياً، وحينها ستنال عليه أشدَّ أنواع العقوبات .

بعـد أن يَئِسـوا مـن الـتخلِّص منـه عـن طريـق الحـاكم ، حـاولوا الـتخلص منـه عـن طريقـه تسـميمه مـن قِبَلِ الخـدم ، لكـن لحـب الخَـدَم بـه كـانوا يكـذبون علـيهم واحـداً تلـو الآخـر ولا يضـعون السـم ، بـل يقولـون :وكـأنَّ الله يحميـه ، فكلمـا نضـع السـم لـه بالطعـام لا يتناولـه، أوعنـدما نضـعه بالشـراب تقـع الكـأس مـن يده.

كـان عطفـه ومحبتـه وكرمـه على أضـعف سـكان المدينـة ، كفـيلاً بأن يحميه ويردَعَ عنه خبثَ ومكرَأقوى رجالها .

بعـد أن يَـئِسَ المسـؤولون في المدينـة مـن الـتخلص منـه بطريقـة سـريّة اسـتعانوا بقـادة الجـيش ، بعـد أن زرعـوا الحقـد بـرأس

أقدمهم ،بأنه وبعد عشرين سنة قضاها في خدمة الحاكم لكنه يعطي دامس راتباً يعادل راتبه وهو لم يكمل السنتين.

رحَّب القائد برأيهم و أبدى استعداده التام لإرسال جندي من جنوده ليزوردامس في جناح مركزرعاية الروح في القصر بحجة أنه مُتعَبٌ نفسياً ، وما إن يُغلَق الباب عليهما ، حتى يوجِز الجندي عليه .

ذهب الجندي وكله تأهب لقتله ، بعد أن أخذ مبلغ مئة ألف دينار قبل إنهاء مهمته ، ونصف المبلغ بعد إنهاءها ، لكن ولأنَّه لم يأتي أحد لدامس من الجيش أو القادة أو المسؤولين المهمين ،كان مجُرَّد دخول ذلك الجندي إلى القصر لافتاً للنظر لدرجة أنَّ كل الخدم في القصر تأهَّبوا حالما رأوه ، وما إن دخل ليقابله حتى أوقَفَه أحدهم قائلاً :

الحاكم أمرنا أن نفتش أي مسؤول أو جندي ونأخذ منه أي آلة حادة يحملها .

حــاول الجنــدي إلجــام غضــبه كـي لا يكشــفه أحــد ، فابتســم بإكراه وقال له : على الرحب والسعة .

أخــذ الخــادم منــه ســيفاً وســكين ثــم طــرق البــاب علـى دامــس وأعلمه بأنَّ هناك جندي يودّ مقابلته .

دخــل الجنــدي ، واصــطَفَّ جميــع الخــدم كــالحرس علـى بــاب جنــاح دامــس ، يســترقون الســمع كــونهم علـى علــم بتخطــيط المسؤولين المُسبق لقتله عن طريق السم .

جلس الجندي وهو يمثل الحزن ،فقال له دامس :

ما هي مشكلتك ؟!

مشـكلتي يـا طبيـب الـروح أني أخـذتُ مئـة ألـف دينـارمـن القائـد، ولـي عنــده خمســون ألــف ، ولــن يعطنـي نقــودي إلا إذا نفــذّت المهمة التي طلبها مني .

إذاً نفذّها وخذ نقودك .

فانقضَّ الجندي عليه قائلاً : و أنا هنا لقتلك.

وبلمح البصر أمسك بعنق دامس الذي كان مذهولاً لدرجة أنه لم يستطع الهروب ، وقبلَ أن يصرخ فتح الخدم الباب وبأيدي أضخمهم ساطور ، و انقضَّ على رأس الجندي بلمح البصر.

هرول بقية الخدم للاطمئنان على دامس الذي كان يمسك عنقه والدم محتقن في عروق وجهه، وهو يسعل وينظر لرأس الجندي الذي كان مفصولاً عن جسده.

ساعده الخدم على شرب الماء وما إنْ توقف عن السعال حتى انهالت دموعه من هول الذعر الذي عاشه .

هرول نصف الخدم لإحضار الحاكم شخصياً والنصف الآخر بقي لحماية دامس بعد أن أخروجه من جناحه .

تلَقّى الحاكم الخبر كالفاجعة ، فهرول إلى دامس وقلبه يرتعش خوفاً ، وما إن رآه حتى احتَضَنه وانهالت دموعه وهو يقول :بني ، أحمد الله على سلامتك .

ثـمَّ طلـب مـن الخـادم الـذي قتـل الجنـدي مر افقـة دامـس إلى جناحـه وملازمتـه صـباحاً ومسـاء ، وذهـب ليـرى رأس الجنـدي لعلّـه يعـرف قائـده ، لكـن ولعـدد الجنـود الكبيـر لـم يسـتطع معرفـة القائـد ، فقـام باسـتدعاء كـل القـادة لسـؤالهم واصـطفّوا جميعـاً بجانـب بعضـهم الـبعض ، فـدخل الحـارس الشخصـي للحـاكم وألقـى بـرأس الجنـدي أمـام أقـدامهم فصرخ الحاكم قائلاً : لن أُعيدَ سؤالي ، من قائده ؟!

فأجابَ قائده وهو يرتعش خوفاً :

لا أعلم كيف ولماذا أتى لقتل دامس .

مـع أنـي حـذَّرتك مـرة واحـدة كمـا حـذّرتُ غيـرك ، لكـن ولغبـاءك أرسـلت جنـديك لقتلـه ، ومـن سـوء حظـك أنـه لـم ينهي مـا أمرتـه به ويلوذ بالفرار.

ثـم صـرخ :أيهـا السـجَّانون ، خـذوه وقيّـدوه بـالأغلال الموصـدة في أقذرسجن ، لحين إعدام هذا الخائن في ساحة المدينة .

أمسكه السجّانان وسحباه أرضاً وهو يبكي ويتوسل للحاكم :

لا علاقة لي صدقني ، أرجوك سامحني فالمقربين منك هم من حرَّضوني عليه .

ثم أمر بقية القادة بالانصراف ، وهو يفكر بآخر جملة قالها له.

ذهب للاطمئنان على حال دامس ، الذي ولهول تعبه النفسي غطَّ في نومٍ عميق ، و أثناء عودته إلى جناحه ، استوقفه خادم من الخدم الذين يُعدّون الطعام والشراب ، قائلاً:

سيدي لقد أخفينا عنك أمراً ، لكن أرجو أن تعطني الأمان لأخبرك به .

رمقه قائلاً : اتبعني لجناحي .

جلس الحاكم على عرشه فقال الخادم وهو مُطأطىء رأسه:

لأننا رأينا ما فعلته بالقائد ، أريد أن أخبرك بأنّه ليس الوحيد الذي ينوي أن يتخلّص منه ، فأهم رجال المدينة أمرونا بدسّ

السم للطبيب دامس ، لكننا لم نفعل ولم نجرؤ إخبارك خشية من أنْ لا تُصَدّقنا.

كادَتْ أنْ تتمزّق جفونه من الصدمة وهو يقول :مَن أيضاً ؟

المسؤول عن ديوان الخزانة ، والمسؤول عن ديوان الحاكم والمسؤول عن ديوان الأمور الإفرنكية، والمسؤول عنهم جميعاً .

كان كلام الخادم كالصاعقة التي ضربَتْ رأسه ،فأمره بالخروج ، وجلس يعيدُ ما سمع برأسه، فلم يستوعب أنّ الرجال الذين هم من المخلصين له وأشد المقربين منه أرادوا قتل من قال لهم أني أعتبره كابني ، وعلى الرغم من أنه حذرّهم سابقاً حتى بعدم الحديث بالسوء عنه.

لمْ يستطع الحاكم النوم جيداً لأسبوعٍ كامل، فقد كان يفكر بالعقوبة المناسبة التي سيُصدِرُها بحقِّ أقرب الرجال إليه أما دامس فقد أمضى الأسبوع لا يخرج من جناحه الخاص وهو

يقول أريد البقاء بمفردي ، فلا يُقابل أحداً سوى الحاكم الذي كان يزوره في كل يوم ليطمئن على حاله فيجده مرهقاً وكأنه يعاني من مرض عضوي ، وعندما يسأله هل أنت بخير ؟! ، كان يومِئُ رأسه وبابتسامة خفيفة يقول بخير، وصوته بالكاد يُسمَع ، فيخرج الحاكم على الفور احتراماً لرغبته .

في كل يوم كان يعتصر فؤاده الألم للحال التي آل إليها ، إلى أن قال في اليوم السابع: طبيب الروح يحتاج الآن طبيباً ولهذا السبب لن أكتفي بإعدام القائد.

وفي اليوم الثامن أصدرَ بياناً كتب فيه :

في ظهر الغد سَيُعدَم القائد الذي أرسلَ جندياً لقتل الطبيب دامس في ساحة المدينة ، مع المسؤول عن ديوان الخزانة والمسؤول عن ديوان الحاكم ، والمسؤول عن ديوان الأمور الإفرنكية، والمسؤول عنهم جميعاً، لمحاولاتهم المتكررة قتل الطبيب دامس عدا عن تحريض قائد الجنود لقتله .

في فجر اليوم التالي تم تعليق المشانق ، وحضر الإعدام المئات من الأهالي منذ الصباح لرؤية هذا الحدث التاريخي الذي لم يحصل له مثيل .

لم ينم الحاكم إطلاقاً في تلك الليلة ، فلم يستوعب أنه في الغد سيفارق الحياة أعز الرجال على قلبه كونهم رافقوه طوال مسيرة حكمه لخمسٍ وعشرين سنة ، مما جعله ينسى تنبيه الخدم أنْ لا يُخبروا دامس لحين تعافيه النفسي فاعتقد أحدهم أنَّ إخبار دامس بقرار الحاكم سيجعله يتعافى على الفور بعد أن يذهب لحضور الإعدام ، وعندما أحضر الفطور بوقت متأخر لجناحه ، أخبره ببيان الحاكم .

وقف دامس مذهولاً وقلبه يؤلمه لشدة كراهيتهم على الرغم من عدم إيذائه لهم ، مما جعله لا يأخذ بالاً من كلمة إعدام إلا بعد دقائق ، فكادَت أن تتمزق جفونه وهو يقول:

مهلاً مهلاً إعدام ، اليوم إعدامهم ؟!

نعم سيدي، إعدامهم بعد نصف ساعة .

تسارعت ضربات قلبه فهرول خارج القصروهو يصرخ :

جهّزوا العربة .

سابَقت العربة الرياح للوصول إلى ساحة المدينة ، وفي تلك الأثناء تمَّ اقتيادهم داخل قفص بالعباءات البيضاء، مقيّدي الأيدي و الأرجل ، ليراهم الناس في حالتهم المزرية وهم يلاقون حتفهم .

كانوا جميعهم ناكسي الرؤوس، ودموعهم تنهال بصمت ، وقلوبهم ترتعش خوفاً ، يتمنوا لو يُعاد الزمن بهم إلى الوراء ليتراجعوا عما فعلوه ويكونوا كالإخوة لدامس ، وما إنْ صعدوا لمنصة الإعدام حتى انهاروا بكاءاً وهم يرجون الحاكم الذي كان يرا قبهم عن كَثَب وهو محمول بالكرسي المكشوف على أكتاف الخدم ، فأومأَ بيده للجنود أن يضعوا الحبال

على أعناقهم وما إن وضعوها بانتظار الإيماءة الثانية لسحب الكرسي حتى وصل دامس وصرخ قائلاً :

أوقفوا الإعداااام ، أبي أرجوك أوقفهم .

كادت أن تتمزق جفون الحاكم من رؤيته ، عدا عن عيون الأهالي التي اتجهت نحوه ، مع المحكومين الذين كادَت أن تُقطَع أنفاسهم قبل تنفيذ الحكم.

ما إنْ نزل دامس من العربة حتى هرول لمنصة الإعدام ، وأزاح الحبال عن أعناقهم واحداً تلو الآخر وسط ذهول الجميع فأمر الحاكم من يحمله بأخذه للمنصة .

عندما أنزلهم ركعوا جميعهم عند قدميه وهم يقولون :

سامحنا يا طبيب الروح ، نرجوك أطلب من الحاكم العفو عنا.

حينها وصل الحاكم وقال بهدوء أذهل الجميع :

لماذا أنزلتهم يا بني ، أتريدُ إعدامهم بطريقة أخرى؟!

حينها انهالت دموع دامس وقال :ر

أيُّ إعـدام يـا أبـي ، كيـف تنهي حيـاتهم بلمـح البصـر؟ إنَّ العفـوَ عند المقدرة .

فقـال الحـاكم وهـو مُقَطّـب الجبـين:أيُّ عفـوٍيـا بني ، كـانوا يخططـون جميعـاً لقتلـك ولـيس لمـرة واحـدة بـل حـاولوا مـراراً و تكراراً وختموها بإرسال ذلك الجندي .

مسـح دامـس وجنتيـه وقـال :ولـم يسـتطيعوا الـتخلّص مني . لـو وضـعْتَهُم بضـعة أسـابيع أو أشهربالسـجن ، ثـم جـرَّدْتَهم مـن مناصبهم ونفيـتَهُم ؛ على الأقـل لأجـل السـنين التي خـدموكَ بهـا . لا تدع غلطة قاموا بها ، تمحو سنوات من الإخلاص والمودة .

اتَّسَـعَت حـدقتا عينيـه مـن الدهشـة ، وصـمت لثـواني وهـو ينظـر لهـم راكعـين عنـد قدميـه ، وعنـدما رأوه صـامتاً اقتربـوا مـن قدميه وقالوا:

سامحنا يا سيدي ، لن نعيد ما اقترفناه مرة أخرى ، فلم نشعر بِهَول خطئنا إلا عندما أوشكنا على الموت.

نظر الحاكم لدامس وقال :سمعتَ يا بني ، هنالك أشخاص إن لم يُردَعوا بأقصى العقوبات لن يعرفوا حجم الذنب الذي ارتكبوه ، و أنت لا تزال صغيراً طيب القلب ، لا تعرف حجم الخبث في هذا العالم .

إذاً بما أنهم قد عرفوا حجم ذنبهم ، اعفُ عنهم أرجوك .

حينها انهالت دموعهم وقبلوا قدميّ الحاكم وهم يرجون عفوه، فقال الحاكم للسجَّانين : خذوهم إلى السجن

ثمَّ التفتَ إلى الأهالي وقال بأعلى صوته: لقد عفيتُ عنهم من الإعدام ، لأجل أنَّ الطبيب دامس طلب ذلك ، لكني لن أُعيدهم إلى مناصبهم ، بل سأزجُّ بهم في السجن طيلة حياتهم .

فهتفَ الأهالي : يحيا الطبيب دامس ، يحيا الحاكم .

فاحتَضَنَ دامس الحاكم ، وبكى من سعادته ، ثم عادا إلى القصروأمضَيا اليوم بأكمله معاً يتحادثان بمواضيع مختلفة بعيداً عن خيانة رجاله والتآمرلقتله ، وفي نهاية اليوم قال دامس :أتسمح لي يا أبي بالذهاب غداً إلى السجن ، لكي أتحدّث معهم و أفهم نفسيَّتهم وسلوكهم العدواني ؟

فابتسم الحاكم قائلاً: لكَ ما أردْتَ يا بني .

وفي اليوم التالي ذهب إلى السجن وكلَّمهم بغرفةٍ منعزلة كلٌّ على حدىً قائلاً:تحدَّث معي بصفتي مُرشِد نفسي وليس دامس ، وأجبني ما الذي جعلك تُصمم على قتل شخص لم يُصبْكَ بأيّ أذىً.

فكان جواب كل واحد :الحقد الذي نجم عن الغيرة يا طبيب الروح قد أعمى بصري، فقد أعطاكَ الحاكم من الميزات الخاصة والمحبة ما لم يعطه لي و أنا الذي رافقته خمساً وعشرين سنة بكل إخلاص ومحبة وطاعة .

فكان رد دامس كفيلاً بجعلهم يَرَوْنَ أنفسهم سُذَّج حين قال :

في هذه الحياة لكلٌّ منا مكانته ومميزاته التي تختلف عن غيره ، فإنْ كنتُ أنا أداوي جروح الروح فأنتَ مسؤولٌ لكَ مكانة مهمة ، وإن كان الحاكم يحبني كابنه و أنا لستُ ابنه ، فهو يحبك كأخيه و أنتَ لستَ أخيه ، ثمَّ هل سمعتَ عن رجل لديه أخ، ورزقه الله بطفل، فيكره أخاه أو يُفَضِّل ابنه عليه ؟!. لا أحد يأخذُ مكان أحد، ولا يخسر أحد مكانته طالما أنه لم يقترف ذنباً لا يُغتَفَر، أو يُسِئ التصرف.

شعر دامس براحة لا مثيل لها بعدما تحدَّثَ معهم ، فتذكّر تَنَمُرَّ أهم تجار القرية ونصب سائق العربة عليه ، فقال في قرارة نفسه :ربما مَرَرْتُ بهذه التجربة القاسية لأتذكر مَن جرح مشاعري في طفولتي ، ومن رعاني بدون مقابل عندما كنتُ ضعيفاً ، فمن المؤكد أنَّ من رَعوني يحتاجون الرعاية الآن ، والله قد ذكَّرني بهم بهذه الطريقة بعدَ أنْ نسيتهم، فلولا الذي مررتُ به لم أكن لأتذكَّر معروفَهُم.

حينهـــا ذهـــب إلـــى الحـــاكم واســـتأذنه بالـــذهاب إلـــى قريتـــه للاطمئنـــان علـــى أهلهـــا ، والســـماحَ لـــه بـــأنْ يأخـــذ معـــه مـــا لـــذَّ وطـــاب مـــن الطعـــام والشـــراب والفاكهـــة، وكـــلُّ ذلـــك علـــى نفقتـــه الخاصة . سَعِدَ الحاكم لطيب أصله فقال له :

خـذ وقتـك يـا بُنَي في المكـوث مـع أهـل قريتـك ، لكـن كـلَّ مـا كنـت تنـوي أخـذه ، سـتأخذه أضـعافاً علـى نفقتـي الخاصـة ، فَهـذا أقـلُّ مـا يمكنني أن أُقَدِّمـه لمَـنْ رَعَـوا ابني عنـدما لـم يكـن لـه معيل.

ذهـب دامـس إلى القريـة بعربـة ولحقَتْـه ثـلاث عربـات مُحَمَّلَـة بمـا لـذَّ وطـاب مـع رجـال أرسـلهم الحـاكم لمسـاعدته ، وعنـدما نـزل في سـاحة القريـة لاحـظَ أنّ أشـجارها ميتـة وزرعهـا أصـفر، ثـم اجتمـع حولـه الأطفـال الـذين كانـت ملابسـهم رثّـة وأجسـامهم متسخة ، فصرخ كل واحد منهم :

اجتمعوا يا أهالي القرية ، فقد زارنا ضيفٌ غني.

أقبلَ من سمع النداء ، وجميعهم ينظرون في ذهول تام لدامس، فتهامسوا واحداً تلو الآخر:كأنني أعرفه ، كأنه دامس.

حينها انهالت دموع دامس من الفرح كونهم لم ينسوه وقال:

نعم أصبتم أنا دامس .

هرول الرجال والنساء الذين كانوا يرعونه منذ أن كان رضيعاً واحتضنوه وقبّلوا جبينه قائلين :

لو لم تكن أصيلاً ابن أصيل لما أتيتَ لزيارتنا.

طلب من الرجال توزيع الطعام والشراب بالتساوي على أهل القرية ، وجلسَ مع كبار القرية ، وبعد أن حكى لهم كل ما حصل معه منذ اليوم التي ترك به القرية ، سألهم عن سبب سوء حال القرية والتعب الذي بدا واضحاً حتى على صغارها فأجابوه :بعدَ أن تلف محصول القمح والتفاح، بدأت تتناقص المياه الجوفية بالتدريج ، وتأثَّرت كل أشغالنا.

فقال لهم بدهشة:لماذا لم تحفروا آباراً؟

حاولنا كثيراً لكن دون جدوى ، فهذه الآبار موجودة منذ مئات السنين ، ولأنه لم يحفر أحد أيَّ بئر حديث ، لا علم لنا بذلك .

لو أتيتم إلى حاكم المدينة لساعدكم.

أتينا كثيراً لكن منعنا الحراس من الدخول إلى القصر.

أينَ تاجر القمح والتفاح ؟! لو أتَيا بصفتهم تجار لكانا استطاعا مساعدة القرية

منذ أن تلف محصول القمح والتفاح ، لم ينبت لهما محصول سليم على الرغم من دعواتهما و إقسامهما بأنهما سيتصدقان على الفقراء ، مما جعلهما ينتقلان في نهاية المطاف للعمل بائعَين متجولَين في المدينة، بعد أن أقلَّهما سائق العربة الذي أكل عليك المال ثمن آلة أبيك .

اتسعت حدقتا عينيه من الدهشة فقال :

أين سائق العربة إذاً.

توفيّ بعد بضعة أشهر بمرض أنهكه ولم يعرف الأطباء له دواء

ثم ذهب إلى الرجال الذين رافقوه وقال لهم :

بعد أن تنتهوا من توزيع الطعام والشراب ، اذهبوا جميعكم إلى الحاكم وأخبروه سلامي وقولوا له بأن دامس يرجوك أن ترسل إلى قريته رجالاً مختصين في حفر الآبار فقريته أوشكت على الموت عطشاً ، وعودوا إلى هنا مُحَمَّلين ببراميل من الماء النقي لحين الانتهاء من عمليات الحفر.

ثم ذهب دامس للنوم في كوخ أبيه فرأى في أحلامه أنَّه يدعو له بالرضا والسعادة ويبشره بأنَّ مكانته ستعلو في الأيام القادمة .

في صباح اليوم التالي أحضر الرجال براميلاً من الماء مع المختصين والمعدّات لحفر الآبار.واستمرَّ نقل براميل المياه بشكل يومي ووضعها في ساحة القرية لمدة شهر.

لم يفارقهم دامس طيلة الشهر وأمضى كل يوم في تعليم الأطفال القراءة والكتابة .

ثـمَّ ودَّعهـم بعـد أن رأى الميـاه تتـدفق مـرأى العـين ،وأخبرهم أنـه سيرسـل إلـيهم مسـاعدين لإنشـاء مجلـس علـم لمحـو الأميـة للأطفال ، مع معلمين مختصين .

عـاد دامـس إلـى المدينـة ، فـرأى المحـلات مغلقـة ، والطرقـات خاليـة ،والـدمار حـلَّ بـبعض أحيائهـا ، والـذعر واضـحٌ على وجـوه بضـعة رجـال كـانوا يركضـون ،فـانقبض قلبـه خوفـاً وهـرول إلى الحاكم ، فرآه طريح الفراش.

بعـد أن اطمـأنَّ أنـه يعـاني مجـرد إرهـاق ، عـرف السـبب الأساسـي لتعبـه ووضـع حـال المدينـة ، فقـد أخبره الحـاكم أنـه في الجـوار مدينـة معاديـة لمـدينتهم منـذ قـديم الأزل ، كـان حاكمهـا يحـاول منـذ أن تـولى منصـبه ، احـتلال مـدينتهم تلبيـة لوصـية أجـداده ، ومـع أنَّـه قـد قاومـه على مـر السـنوات ، لكـن بمـا أنـه اسـتطاع قصـف المدينـة بـالمنجنيق في مسـاء الغـد فهـو قـد اسـتعان بنهايـة المطـاف بـأقوى قائـدي بـلاد العجـم ، لعـدم امتلاكـه هـذا السـلاح المتطـور ، وراح ضـحية ذلـك الهجـوم

رجـالاً ونسـاء وأطفـال ، وهـذا يعني أنهـم سيحاصـرون المدينـة تمهيداً لاحتلالها .

فسـأله عـن سـبب عـدم ردّه الهجـوم بمـا أنَّ المدينـة تمتلـك سـلاح المنجنيـق ، فأجـاب بـأنهم لـو ردوا هجـومهم لأعـادوا القصـف بطريقـة وحشـية ،فهـم بـذلك يعطونـه فرصـة للتنحي عن الحكم وتسليمهم السلطة دون مقاومة .

أمضـى دامـس الليـل وهـو يفكـر بطريقـة يسـاعد بهـا المدينـة ويضـمن بقـاء أبيـه حاكمـاً ، إلى أنْ لاحـت لـه فكـرة وعنـد بـزوغ الشمس ، هرول إلى الحاكم قائلاً:

أبـي الغـالي ، بعـد تفكيرطويـل توصّـلتُ إلى أننـا يجـب أن نجعـل عـدوَّعـدوِّنا ، صـديقنا ، أي أننـا يجـب أن نتحـالف مـع حـاكم بلاد العجم.

اتَّسَعَت حدقتا عينيه من الدهشة :

التحالف مع حاكم بلاد العجم يعني أننا يجب أن نعطيه خيراتٍ كثيرة وغنائم ، وهذا يجعل ثروات مدينتنا تتضائل فيؤثر ذلك على اقتصاد البلاد ويُفقِر العباد .

تنهَّد دامس و ابتسم قائلاً:ومن قال أننا سنعيطه خيرات مدينتنا ، بصفة مدينتنا أقوى من مدينة عدونا عسكرياً و اقتصادياً ، سنتفق معه أن لا يُتعِبَ نفسه بشيء ، ونحن سنحتل مدينة عدوِّنا ونعطه نصف خيراتها ، مقابل أن يعْلِمَ حاكمها أنه تراجع عن دعمه لهم.

كادت أن تتمزق جفونه وهو يقول :

لكن يا بني أنا نويت التنحّي في اليومَين القادمَين منعاً من إراقة الدماء ، كيف سُيطاوعني ضميري على إراقة دماء أبرياء مدينة عدوي .

ابتسم دامس قائلاً:ومن قال أننا سنحتلها بإراقة الدماء؟!

دعنا نرى رد حاكم بلاد العجم في بادئ الأمر ثم نتكلم لاحقاً.

فـرد الحـاكم :في هـذه الحالـة يجـب أن يـذهب أقـدم قائـد للجنـود مـع المسـؤول عـن ديـوان الأمـور الإفرنكيـة لرؤيـة حـاكم بـلاد العجـم ، وبعـد أن يـتم التحـالف يجـب أن أجمعهـم مـع المسـؤول عـن ديـوان الحـاكم وديـوان الخزانـة و المسـؤول عـنهم و أترأّسـهم للتشـاورعن كيفيـة تقسـيم الغنـائم ودراسـة مـا نحتاجـه، كي نعطي بـلاد العجـم مـا لا نحتاجـه ، لكـن وكمـا تعلـم أنهـم جمـيعهم في السـجن ، ولـن أسـتطع أن أضـع رجـالاً بِكُفـئِهِم لهذا الوضع الطارئ .

ابتسـم دامـس قـائلاً :إذاً فليخرجـوا جمـيعهم مـن السـجن ولتسـمح لي بمر افقـة القائـد مـع المسـؤول عـن الأمـور الإفرنكيـة لمقابلة حاكم بلاد العجم بصفتي المترجم .

اغرورقت عينا الحاكم بالدموع وقال:

هل يعني أنك تسامحهم ، ولن يزعجك إن أعدتهم لمناصبهم؟!

بالطبع لا ، فأنا سامحتهم ونسيت ما حدث .

فـأمر الحـاكم بـإطلاق سـراحهم على الفـور وإعـادتهم لمناصـبهم ثـم أخبرهم بمـا قـال دامـس حرفيـاً ، فَدُهِشـوا لنباهتـه ، و أيـدوه بفكرته.

عنـد حلـول الظهيـرة جهَّـزوا العربـة التي سـتقلّهم لـبلاد العجـم وأخـذوا معهـم صـندوقاً مليئـاً بالـذهب. مـا إن تحـدَّث دامـس مـع حارس القصر بلغتهم حتى حلَّق للحاكم قائلاً:

سـيدي آنـدرو، المسـؤول عـن الأمـور الإفرنكيـة و أقـدم قائـد للجنـود فـي المدينـة التجاريـة " موراشـد " الملقبـة بمدينـة الحظوظ يودون مقابلتك ، ومعهم شاب كأنه أعجميّ.

فأمَرَه بإدخالهم للاستماع إلى ما يقولون .

دخلـوا و انحنـوا جمـيعهم أمامـه ، وبعـد أن فُـتِحَ صـندوق الذهب قال دامس باللغة الأعجمية:

-سيدي آندرو ، لكَ من حاكم مدينة موراشد كل الاحترام وهو يهديك هذا الذهب الذي لا يُعادل شيئاً من قدرك ومكانتك، وله عندك رجاء .

اعتدَل الحاكم آندرو في جلوسه وقال له :قل ما عندك .

يا سيدي ، أوّل البارحة قد أعطيتَ مدينة جومنداس قيمة عندما ساعدتهم بقصف مدينة موراشد ،كونها كانت تحاول احتلال موراشد منذ عقود دون جدوى ، ونحن نرجو أن توقف دعمك لهم ، وتُفسِحَ المجال لنا لاحتلالها وضمها لنا ومقاسمتك نصف خيراتها بدون أن تدفع ولا حتى فضيَّةٍ واحدة .

ابتسم الحاكم آندرو قائلاً :

هذا يعني أنكم لن تحتاجوا المنجنيق المتطور لقصفهم.

ردَّ دامس بابتسامة :نحن نملك منجنيقاً حتى لو أنه لا يعادل منجنيق بلادكم لكنه يفي بالغرض.

ضحك آندرو وقال :لو لا أنَّ دستور بلادنا يمنع احتلال المدن العربية ، لاحتللت موراشد وجومنداس ، لكن لسوء حظنا أنه لا يسمح لنا سوى بمقاسمة الخيرات لكن بما أنكم ستقتلون بعضكم فهذا يكفيني.

صمتَ الحاكم آندرو للحظات ، حينها خشي دامس أن يخبره أنه سيحتلها بدون إراقة الدماء ، مما يجعله يتراجع عن دعمهم ، فاكتفى بالصمت .

ثم تابع آندو قائلاً:

بما أن موراشد ستقوم بكل شيء دون تمويل وتعطنا نصف الخيرات عدا عن هذه الهدية اللاّبأس بها ، فنحن مو افقون لأننا كنا سنأخذ نصف خيرات مدينة موراشد مقابل تمويل مدينة جومنداس ، وبدون أيّ هدية .

حلَّق فؤاد دامس فرحاً وارتسمت البسمة على وجهه حينها عرف المسؤول والقائد أنَّ الاتفاق قد تم ، وقبل أن يستأذنه دامس بالانصراف قال له الحاكم آندرو :

من أي مدينة أنتَ من بلاد العجم .

أنا عربيّ يا سيدي

حينها اتسعت حدقتا عينيه من الدهشة، كونَ العرب الذين يتقنون لغة بلاد العجم نادرين ،عكس أغلب العجم الذين يتقنون اللغة العربية بطلاقة

ما إنْ عادوا إلى المدينة ، حتى وجدوا بقية المسؤولين بانتظارهم مع الحاكم لسماع رد آندرو ، وبعد أن أبلغهم دامس قال الحاكم :

سيستغرق يومان لإبلاغ حاكم جومنداس بتوقّف دعمه له لكنك لم تخبرني كيف سنحتل المدينة دون إراقة الدماء ؟!

أبـي ، علينـا توجيـه منجنيـق ناحيـة قصـر حـاكم جومنـداس ونرشقه بالحجارة الصغيرة المغطاة بورق نكتب عليه:

بعـد أن توقـف الحـاكم آنـدرو عـن دعمـك ، معـكَ يـومٌ واحـد للخـروج مـن القصـروالسـفرلأبعـد الحـدود مـع كـل مـا تملـك مـن ذهـب ونقـود ، بعـد أن تنشـربيانـاً تقـرُّفيـه بتسـليم السـلطة لحـاكم مدينـة موراشـد ، وفي حـال عـدم تنفيـذك ذلـك فأنـت تعـرف حـقَّ المعرفـة مـا الـذي يمكنـه فعلـه بمـدينتك ، لكـن إنْ حاولـت المماطلـة ؛ في فجـر اليـوم المحـدد لخروجـك سـيتم قصـف قصـرك بالقـذائف الحارقـة ، وبأقـل مـن سـاعة ستُشوى أنتَ وجنودك .

سـاد الصـمت للحظـات والجميـع ينظـرلـدامس بـذهول ؛ فقطـع قائـد الجنـود صـمتهم قائلاً:سـأقوم بتوجيـه المنجنيـق نحـوَ قصره من الآن وسأكون جاهزاً للقصف بعد يومان

فقال المسؤول عن ديوان الأمور الإفرنكية :

يجب أن نضع خطة بديلة بحال أنه حاول المكروالخداع.

فـردَّ دامـس :لا يوجـد أمامـه أي خيـار، إمـا المـوت وإمـا التنحي مـع كـل نقـوده وذهبـه ، ونحـن لـن نعطيـه مجـالاً حتى أن يفكـربشـيء حيـث أننـا سـنعلمه بمـا سـنفعل بعـد أن يُصـدَم مـن الحـاكم آنـدرو على الفـور، ثـم نقـف نر اقـب خروجـه فـوق التلـة ، أعلى قصره.

فقال الحاكم لقائد الجنود:إذاً جهز المنجنيق من الآن.

وبعـد يومـان عنـد منتصـف الليـل ، عـرفَ حـاكم جومنـداس بقـرارحـاكم بـلاد العجـم ، فلـم يسـتطع النـوم وجنـوده خشـية أن تكـون موراشـد لهـا يـدٌّ بـالأمر، فـتم رشـق قصـره بالحجـارة في فجـر اليـوم التـالي ، فهـرول جنـوده إليـه ، وأطلعـوه على بيـان حاكم موراشد وقالوا له بذعر:

-سيدي دعنا ننجو بأرواحنا ونر افقك لأبعد الحدود ، فلا أمل من مقاومتهم طالما أنَّ الحاكم آندرو قد أعلن انسحابه .

بقي حاكم جومنداس دون نوم للظهيرة ،وهو يفكر مع رجاله بحل سريع ينتشله من هذه الورطة ، لكن عندما أغلقوا جميع الأبواب في وجهه ، أمرهم بإصداربيان بتنحّيه وتولية السلطة لحاكم موراشد ، ثم أمر جميع الجنود بانتظاره خارج القصرو أقفل الأبواب لينام بضعة ساعات خشية أن يسرقوه أثناء نومه ، ثم استيقظ ليجمع ثروته بنفسه ، وعند الفجر أنهى جمع ثروته وأمر جنوده بمر افقته للاحتماء بأبعد مدينة يتوقف عندها ، لكنه رأى أنَّ بانتظاره بضعة جنود فقط ولم يكترث للبقية .

لكنْ بقية الجنود اعتبروا طرده لهم من القصر عند نومه ، تخويناً لهم ، ورأوا أنَّ مر افقته تساوي البقاء ، مما جعل أغلبهم يرفضون الرحيل معه ويفضلون ملاقاة حتفهم

بمـدينتهم . كـان الحـاكم مـع رجالـه ودامـس ير اقبـون خـروجهم ، فقال الحاكم لدامس :

أرأيـتَ يـا بني إلى أيـن أوصـله جشـعه ، لـو لـم يسـتمر بـالطمع بمـا ليس له لكان الآن لا يزال في قصره .

كانـت عمليـة الاحـتلال تلـك ، الوحيـدة في التـاريخ التي حـدثت بـــدون إراقـــة قطـــرة دمـــاء . وفـــي الصـــباح دخلـــوا مدينـــة جومنـداس وهـم ممتطـين الأحصـنة رافعـي الـرؤوس ، وخلفهـم جـــيشٌ كامـــل والنـــاس يرتعشـــون خوفـــاً مـــن المصـــير الـــذي سيلاقيهم .

وقـف الحـاكم مـع المسـؤولين ودامـس في سـاحة المدينـة ، فقـال الحاكم في أعلى صوته:

لقـد عيَّنـتُ ابني دامـس نائبـاً لي في مدينـة موراشـد ، وهـو الآن سيقطن في قصر حاكم جومنداس بصفته حاكمكم .

كـــان ذلـــك كالصـــاعقة ضـــربت رؤوس أهـــالي جومنـــداس وكالسـعادة التي أنعشـت قلـوب مسـؤوليها وجنودهـا ، ولأن كـلام الحـاكم كـان مفاجـأة لهـم ، هنئـوا دامـس بـنفس اللحظـة ودعـوا لـه بـالتوفيق مـن صـميم قلـوبهم ، ثـم عـاد الحـاكم مـع نصـف جنـوده وتـرك النصـف الآخـر لحمايـة دامـس خشـية مـن غـدر جنود جومنداس .

دخـل دامـس إلى القصـر فوجـد الجنـود ناكسـي رؤوسـهم مـاددي الأيدي بالأسلحة لتسليمها ، فقال دامس بأعلى صوته:

-يـا جنـود جومنـداس ، أنـا الحـاكم الجديـد دامـس ، إنَّ بقـاءكم في مـدينتكم يعني أنكـم أوفيـاء لهـا، وهـذا يجعلني أُبقـيكم جنـوداً كمـا كنـتم ولـن يتغيـر عليـكم شـيء ، باسـتثناء الخيـرات التـي ستهطل عليكم في الأيام المقبلة.

هتف جميع الجنود مراراً :

يحيا الحاكم دامس ، يحيا يحيا يحيا.

بأثناء ذلك دخل دامس مع جنوده للقصر رافع الرأس عريض المنكبين ،وقلبه يحلق فرحاً ، وهو يقول في قرارة نفسه

لقد فاجأني أبي ، هل هذا حلم ؟!

ثم جلس على عرش الحاكم وقال لجنوده :بعد أن قام المسؤولون بحساب ما تحتاجه مدينة موراشد عيّنوا رجالاً لإحصاء عدد آلات صناعة الخشب والزجاج والحديد والنسيج وأرسِلوها لحاكم بلاد العجم ، ثم أرسلوا من مدينة موراشد إلى جومنداس آلات للناس التي تم أخذ آلاتهم منهم كون موراشد لديها فائض منها .

شعر أهالي مدينة جومنداس بدهشة عارمة ، بعد أن قام رجال مدينة موراشد بتوزيع آلات أحدث عوضاً عن التي سحبوها ، قائلين :

هذه الآلات ملككم الخاص عوضاً عن سابقتها

لقد توقّعوا بالأجمع أن يتم اقتياد رجالهم كأسرى ونساءهم كجواري ، وأطفالهم كعبيد ، انتقاماً لضحايا موراشد ، لكن تصرف حاكمهم الجديد جعلهم يشعرون بالاطمئنان فعادت المدينة لحياتها السابقة وكأنَّ شيئاً لم يكن .

بعد أن وصلت الآلات لحاكم بلاد العجم قال في قرارة نفسه:

لم أتوقع أن تكون غنائم بلادي هذه الآلات التي لطالما حلمتُ اقتنائها ، لتوفير استيراد الزجاج والخشب والحديد والنسيج من البلاد العربية، لكن ما فائدتها إن لم يكن أحدٌ من بلادي يجيد العمل عليها ، أنا أريد أن يجيد شعبي هذه الأعمال لكن كيف ؟! وتركيزُ أجدادي كان على صناعة المعدات الحربية ، وتجاهل هذه الصناعات المهمة.

وبعد تفكير طويل قال لرجاله:

أعدُّوا العربة للذهاب إلى قصر الحاكم الجديد لجومنداس.

طـوال طريـق الحـاكم آنـدور ، كـان يتخيـل تـارة حجـم الخـراب الـذي سـيلاقيه ، وتـارة يخمِّـن المقابـل الـذي سـيطلبه حـاكم جومنداس لقاء تنفيذ طلبه له .

وعنـدما وصـل ذُهِـل لشـكل المدينـة الـذي لـم يتغيـروكأنهـا لـم تُحتَـلَّ البتَّـة ، فـأمر جنـوده بالإسـراع لقصـر الحـاكم . كـان النـاس مـذهولون مـن كـون عربـة العجـم تسـير في طرقاتهـا وعنـدما وصـلت العربـة للقصـر هـرول جنـود جومنـداس لـدامس قائلين:أنقـذنا يـا سـيدي ، لقـد أتـى حـاكم بـلاد العجـم فهو يعرف بأننا جنود الحاكم السابق ونخشى أن يأمر بقتلنا.

ابتسـم دامـس قـائلاً:مـن لحظـة اسـتيلامي الحكـم أصـبحتم جنودي ولن يجرؤ أحد على الاقتراب منكم.

ثـم خـرج لاسـتقباله علـى بـاب القصـر ، فأقبـل آنـدور ورمقـه بضـيق:رهذا التصـرف غيـر مقبـول مـن حـاكم جومنـداس ، لمـاذا لم يخرج لاستقبالي وأرسلكَ أنت ، ألستَ المترجم نفسه؟!

ابتسم دامس وقال :نعم يا سيدي أنا المترجم دامس حاكم مدينة جومنداس ، ابن حاكم مدينة موراشد.

ثم دعاه للدخول وطوال مسيرهما إلى جناح دامس كان آندرو مذهولاً من بساطة ثيابه كونه حاكم . وعندما دخلا؛ أمر دامس رجاله بتحضير أفخم جناح في القصر لمبيته. ثم قال له: لقد أنرتَ جومنداس قبل قصري بحضورك .

كيف احتللتم المدينة دون دمار؟!

تنهَّد دامس وقال بابتسامة:استطعنا احتلال عقل الحاكم وتخويفه ، وكسبنا الحرب بدون خسائر لكلا المدينتين.

رمقه آندرو قائلاً: فكرة من هذه؟!

فكرتي .

صمت آندرو للحظات من هول صدمته ، بينما كان يحملق بدامس متعجباً لذكائه وتخطيطه العسكري ولا يزال شاباً في مقتبل العمر، ثم قال :

لقد أتيتُ لأطلب منك أمراً.

فقطع دامس كلامه قائلاً:

أنتَ في ضيافتنا ليومين ، بعدها تستطيع قول طلبك .

اتَّسَعَت حدقتا عينيه من الدهشة ، فلم يسبق أنْ تكلم أحد معه بتلك الثقة وكأنه حاكم العالم وليس مدينة ضعيفة كجومنداس.

وفي صباح اليوم التالي قال آندرو لدامس :

يسرني أن ترافقني للسير في طرقات المدينة، وتعريفي بصناعاتها ومنتجاتها .

رحَّب دامس بذلك وأمضيا اليوم الأول في طرقاتها، يطلعه على الصناعات المشهورة بها ، ولأنها لم تكن بجودة صناعة مدينة موراشد، فقال دامس له في المساء:

لقد لمستُ إعجابكَ بصناعات مدينة جومنداس ، لكني أودُّ إخبارك أنها صناعات على الرغم من إتقانها ، ليست بجودة

صناعات موراشد فهي تضاهيها بأضعاف ، جودة و إتقان وإنْ أردت الذهاب لموراشد يُسعدني الذهاب معكَ في صباح الغد لزيارة أبي ، فينبغي علينا أن نزور الحاكم أولاً من باب الاحترام ، ثم الاطلاع على صناعات المدينة ليوم كامل والعودة في فجر اليوم الذي يليه لجومنداس .

لم يترك دامس لآندرو مجالاً للرفض ، فقد كانت صياغة دامس للكلام كفيلة بجعل لسان آندرو يتوقف عن الحركة للحظات ، فكونه الحاكم الأقوى عسكرياً ، يُفتَرَض أن يأتي الحاكم الأضعف لزيارته ، ولولا أنَّ له غاية عند حاكم جومنداس لم يكن سيأتي إليه .

كانت رغبة آندرو بالتعرف على صناعات جومنداس وموراشد ، سبباً لجعل طلبه مكشوفاً لدامس من قبل أن يقوله، مما جعله يجهّز برأسه المقابل الذي سيأخذه من آندرو لتنفيذ طلبه . كانت سعادة حاكم موراشد لا توصف فقد كانت زيارة حاكم بلاد العجم الأولى لمدينته منذ أن استلم

الحكم ، وبعد أن أخبره دامس بسبب زيارة آندرو ، قام بإطلاعه على صناعات مدينة موراشد ، فذُهِلَ آندرو من الفارق الواضح في الجودة ، فقال له :

لقد رأيتُ بعينيّ سبب تسمية موراشد بالمدينة التجارية.

فقال له دامس :في القريب العاجل ستصبح جومنداس المدينة التجارية الثانية، لأني سأُرسِلُ معلمين مختصين في كل مهنة من موراشد إلى جومنداس لتعليم ممتهنيها الحرفة بقواعدها الصحيحة ، وأجعلها مع الوقت تنافس موراشد.

كادت أن تتمزق جفون آندرو من صراحته ، وفي الوقت ذاته أُعجِبَ بذكائه و اندفاعه للتطور . وقَبلَ عودتهما همس دامس لأبيه :مع الوقت ستصبح موراشد وجومنداس مدينة واحدة تضاهي بلاد العجم عسكرياً و اقتصادياً.

فقال في قرارة نفسه:حينها سأتنازل لك عن السلطة يا بني فلا يستحق أن يجلس على هذا العرش ، إلا الحاكم الذي يأخذ بلاده نحو التقدم والازدهار في جميع المجالات.

ما إن عادا إلى جومنداس حتى قال آندرو مُمَهِدًّاً لطلبه:

لقد اهتمَّ أجدادي منذ قديم الزمان بالصناعات العسكرية لنتفوّق في المجال الحربي ونجعل العرب يهابوننا ، لكنهم أهملوا صناعات الخشب والزجاج والحديد والنسيج ، ولأنهم شجعوا فقط على الزراعة والصناعة الحربية، أصبح صميم تركيز الأهالي في بلادنا على هذَين المجالَين، وأصبحوا يرفضون حتى فكرة تعلم أي صناعة أخرى ، لكن عندما أرسَلْتَ لي الآلات كغنيمة حرب ، خطر لي بأن أطلب منك إرسال معلميّ تلك الصناعات ، لتعليمها لأهالي بلادنا ، لعلهم يتشجّعوا إنْ رأوا العرب معلميهم .

فقـــال دامـــس :علـــى الرحـــب و السـعة ، سأرســـل معلمـــين مختصـــين مـــن كـــل مهنـــة لتعلـــيم أهـــالي بلادكـــم تلـــك المهـــن بقواعـــدها الصـحيحة ، حتى قبـل أن أرسـلهم لجومنـداس ومـع الوقـت لـن تحتـاجوا للـدول العربيـة لاسـتيراد تلـك المـواد ، لكـن لديّ طلب بالمقابل . كادت أن تتمزق جفون آندرو وهو يقول:

-كل طلباتك مُجابة .

بـذات الوقـت الـذي سأرسـل بـه معلميّ كـل الحـرف إلى بـلاد العجـم ، أريـدك أن ترسـل أمهـر صـانعي المنـاجيق والمعـدات الحربيـــة ليتشـــاوروا مـــع صـــانعي موراشـــد لتطـــوير تلـــك الصـناعات ، كـون معـداتكم الحربيـة متطـورة عـن موراشـد ثـم عقـد اتفاقيـة بجعـل موراشـد هـي صـاحبة تلـك المعـدات المتطورة ، ويُحظَر على بلاد العجم صناعة معدات مثيلة لها.

ثم صمت لبرهة وتابع :

لكـــن يجـــب أنْ لا يَغِـــب عـــن ذهنـــك أنَّ تعلـــيم أهـــالي بلادكـــم سـيأخذ وقتـاً لـيس بالقصـيرومـن المؤكـد أنَّ المـدة سـتطول لبعـد عقـــد الاتفاقيـــة بيننـــا ، كَـــونَ الأهـــالي يجهلـــون كليـــاً تلـــك الصـــناعات ، فتعلـــيم أي شـــخص صـــناعات معقـــدة عنـــدما يصـل لمرحلـة البلـوغ ، سـيأخذ وقتـاً لجعلـه يسـتطيع اسـتيعابها بالشكل الصحيح .

حملَـقَ آنـدرو بـدامس لـدقائق ثـم قـال لـه بابتسـامة صـفراء محـاولاً إيهامـه أنـه سـيفكربكلامـه: لـو لا الاتفاقيـة التي تحـدَّثْت عنهـا ، كنـتُ سـأوافق علـى الفـور لكـن في فجـر الغـد قُبَيـلَ عودتي لبلادي سأعلمك بقراراي .

ثم دخل إلى جناحه وهو يقول في قرارة نفسه:

مـن الواضـح أنـي أخطـأتُ عنـدما وصـفته بالـذكي ، كونـه يريـد احتكـار المعـدات المتطـورة لموراشـد وكـأنَّ صـانعي بلادنـا بعـد أن يتشـــاوروا مـــع صـــانعي موراشـــد ، لـــن يســـتطيعوا صـــناعة

مثيلاتها ، وبعد ذلك أُمَزِّق الاتفاقية وأغزو الدول العربية خاصة أنَّ تعلم أهالي بلادنا لتلك الصناعات ، سيلغي القانون الذي يمنع احتلالها .ثم صمت لبرهة وقال :

لو لا مخافتي كأجدادي بِعَوزِ بلادنا لتلك المواد عند احتلال الدول العربية ، كنت احتللتُ موراشد وجومنداس منذ أن استلمت الحكم .

في أثناء ذلك كان دامس جالسٌ على عرشه مبتسماً ، لأنه استطاع إيقاع آندرو في الفخ ، فقد كان على يقين أنَّ آندرو قد و افق على الاتفاقية من الأساس ، وهو يفكر أنَّ باستطاعته بعد تعلم أهالي بلاده الحرف أن يمزق الاتفاقية ومن طمعه وشروره سينسى أنّهم قد تعلموا فقط العمل على الآلات لا صناعتها ، والآلات التي أرسلها من جومنداس قديمة بعض الشيء لن تحتمل وقتاً طويلاً وستحتاج إصلاحات وربما صناعة معدّات جديدة، وأدمغة الأهالي لا تعمل إلا في مجال واحد ، غير أنَّ آندرو يعتقد أنه سيأمر صانعي المعدات

الحربية ببناء معدات مثيلة لموراشد ، لكنه لا يعلم أنَّ دامس يريد استدعائهم وجمعهم مع صانعي موراشد لكي يفهموا منهم طريقة صناعة معدّاتهم المتطورة ويُعلموه بها ثم يتشاور معهم على طريقة لجعلها متطورة عن بلاد العجم وبعد أن يتم بناء تلك المعدات ، يتم إخبار آندرو أنَّ صانعي بلاده مع صانعي موراشد بعد تفكير طويل وتشاور لم يتوصلوا لشيء.

في فجر اليوم التالي قال آندرو لدامس :

مع أني مُكرَه على هذه الاتفاقية ، لكن لجعل بلادي متطورة في كافة المجالات ، سأتنازل وأو افق عليها.

ثم صافح دامس الذي رافقه للخروج إلى عربته وهو يقول في قرارة نفسه:من المؤكد أنّك ستحتاج لعلاج نفسي بعد أن تعي أنك وقعت في الفخ.

وبعد أنْ ودّعه تذكر خوف جندي جومنداس من رؤية حاكم بلاد العجم ، فأمر بجمع الجنود في ساحة القصر وقال لهم

بـأعلى صـوته :يـا جنـود جومنـداس إن اسـتمرَّيتم بـالخوف ممـن هــم أقــوى مــنكم ، حتـى الحيوانــات ستشــعربجبــنكم . يــا جنـودي الأبطـال حتى لـوكـان خـوف العـالم بـداخلكم تحـدّوه واجعلـوا مــن أمــامكم يشــعروا أنكــم لا تهــابون المــوت ، فهــذا سـيجعل حتى مـن هـم أقـوى مـنكم يهـابونكم ويحتـاروا بـأمركم . يــا جنــودي الأبطــال إنَّ الإنســان مــرآة لمــا بداخلــه ، إنْ قــال أنــا شـجاع ولا أهــاب شــيء ، ســيكون كــذلك حقــاً ، وإن قــال أنــا أخـاف مـن المـوت سـيموت مئـة ألـف مـرّة قبـل أن يمـوت فعليًّـاً . قولــوا نحــن نــاجحون حتـى يـأتيكم النجــاح زاحفــاً إلــيكم ، ولا تقولــوا نحــن فاشــلون حتـى لا يُــركِعَكم الفشــل ثــم يَشُّــل خطو اتكم .

حينها شعر الجنود بقوة لا مثيل لها وهتفوا مراراً :

يحيا الحاكم دامس ، يحيا يحيا يحيا

طلب دامس من أبيه أنْ يُرسل لجومنداس كل معلمي الحِرَف وصانعي المعدات الحربية ، ثم أرسل معلمي الحرف لبلاد العجم وطلب منهم تعليم الأهالي بغضون ستة أشهر ،وأكَّدَ عليهم أنْ يقوموا بتخريب الآلات بطريقة لا يلاحظها أحد، بعد أن ينتهوا من تعليمهم، ثم يأتوا لجومنداس ليخبروه بإنتهاء مهمتهم قبل الذهاب لموراشد.

وعندما وصلوا لبلاد العجم ، قام آندرو بتنبيه صانعي المعدات الحربية أن يكونوا في أقصى انتباههم مع صانعي موراشد لأخذ طريقة تطوير المعدات منهم كونه على علم بأنَّ أدمغتهم جامدة ، ثم أرسلهم لجومنداس .

وفي ذلك الوقت كان دامس قد طلب من صانعي المعدات الحربية التركيز مع صانعي بلاد العجم لكي يعرفوا منهم طريقة صناعة معداتهم ويوهموهم أنهم يفكرون ليلاً ونهار لتطوير تلك المعدات ، وأن يقترحوا عليهم رسم معداتهم لتجعلهم يفكروا بطريقة أوضح .

قام العجم برسم مخططات صناعة معداتهم ، وأخبروهم أنهم يفكرون معهم بطريقة لتطوير المعدات ، لكنهم لم يأخذوا ثانية من وقتهم بالتفكير، لأنَّ معداتهم كانت بنظرهم متطورة لا تحتاج لشيء، كونها جعلَتهم الدولة الأعظم عسكرياً .

بعد أن قامَ صانعو موراشد بإطلاع دامس على المخططات أمضى شهراً وهو يفكر بطريقة لتطويرها إلى أن وجدها، فجمع صانعي موراشد وقال لهم :

كما تلاحظون معي أنَّ مناجيق بلاد العجم متطورة عنا بأنها تستخدم الأثقال الموازنة لإطلاق القذائف أما نحن فنستخدم إلى ما يقارب مئتي رجل لإرسال القذائف إلى مسافة مئة متر أو أكثر، ولكي نستطيع تطوير المنجنيق أكثر من العجم ،علينا أن نُزيل حبال السحب ووضع حوض تحت عارضة المنجنيق للإمساك بالقذيفة ، أما بالنسبة لأشكال خناجرهم ولأنها تختلف عن خناجرنا فقد أوحت لي بفكرة أن

نجعلها أطول كي يستطيع جنديا إصابة عدونا من مسافة أبعد مما لو كان ممسكاً الخنجر، ولنطلق عليه مسمى السيف للتمييز.

ساد الصمت لبرهة وجميعهم بحالة ذهول ، فقال دامس :

هل تقدروا على صناعة ما قلت بغضون خمسة أشهر ؟!

بالطبع سيدي .

ممتاز، والآن ستخبروا صانعي العجم أنكم لم تتوصلوا لشيء و أنني أمرتكم بالعودة لموراشد في الغد بعد أن نعتُكم بالفاشلين ، وأنَّ بإمكانهم العودة لبلادهم .

نفذَّ صانعو المعدات الحربية ما قاله دامس ، وعادوا إلى موراشد لبدء التصنيع .شعر آندرو بالضيق بعدما أخبره صانعو بلاده بما قاله صانعو موراشد، لكن سرعان ما قال في نفسه:

-لا بأس حتى لو لم يتوصّلوا لشيء ، يبقى المهم أننا متقدمون عنهم حربياً ، وبعد الانتهاء من تعليم رجالنا لتلك الحرف المهمة ، سأحتل جومنداس وموراشد.

وبعد خمسة أشهروقبل عودة معلمو المهن بأسبوع ، أرسل حاكم موراشد لدامس مرسالاً كتب بها:

لقد تمت صناعة خمسون منجنيقاً متطوراً ، ومئة سيف وبعد أن أخبرني صانعو موراشد بما أنجزت قررتُ أمراً وأريد منك القدوم إلى موراشد في الغد لأخبرك به .

ذهب دامس في الوقت المحدد وهو يتسائل عما يريده ، وما إن وصل حتى رأى حشود غفيرة من الناس في ساحة المدينة في ذهول تام وعندما رأوه هتفوا جميعهم :

يحيا الحاكم الجديد .

فأسرع دامس إلى القصر ليفهم سبب ما سمع فقال له حاكم موراشد:لقد أعلنتُ منذ قليل أني قد تنازلتُ لك عن حكم

موراشد وجومنداس ، فأنت أحقُّ بالحكم يا بني ، وممنوع الإعتراض فأنا أريد أن أحيا ما تبقى من حياتي براحة بال في جناحك الذي كنت تعالج به جروح أرواح الأهالي ، وتركتُ هذا العرش بجناح الحاكم لك.

احتضنه دامس وأمضى اليوم معه ثم استأذنه للرجوع لجومنداس وأَخْذ نصف المعدات الحربية التي تمَّ تصنيعها . وبعد أسبوع عاد معلمو الحرف بعد أن قاموا بتخريب الآلات ، وما إن وصلوا حتى أمرهم دامس ببدء تعليم أهالي جومنداس بأسرع وقت.

في تلك الأثناء أمر آندرو رجاله الذين تعلموا المهن بصناعة نماذج لما تعلموه فقالوا له :إنَّ الآلات جميعها قد تعطَّلت .

استشاظ غضباً وهو يقول لهم :

أيعقل أن معلمو موراشد هم من قاموا بتخريبها؟!

لا يعقل يا سيدي فهي بالأصل قديمة بعض الشيء.

وبعد تفكير بضعة أيام ، أرسل آندرو مرسالاً لدامس كتبَ به:

أريدُ منك إرسال آلات عوضاً عن الآلات القديمة ، مع صانعي تلك الآلات لتعليم رجال بلادنا كيفية صناعتها وإصلاحها إنْ تعطَّلَت .

فقام دامس بالرد عليه بمرسال قال به:

تريدُ مني أن أُرسِل لك الآلات وصانعيها ، لكي يُعلِّموا أهالي بلادك ثم تقتلهم بعد ذلك ، وتغزو جومنداس وموراشد لكن قبل أن تتصرف ببلاهة أودُّ إخبارك أنَّ صانعو موراشد قد طوروا المعدات الحربية بطريقة أستطيع بها إبادة بلادكم ومسحها من على وجه البسيطة ، وللتنويه: أنا الذي أمرتُ معلمي موراشد تخريبَ الآلات قبل عودتهم.

كاد قلب آندرو أن يتوقف من الغيظ ، وشعر بذل أنساه تكبره الذي عاشه طيلة حياته ، وأكمل بقية حياته بخوف أن يتعرض لهجوم من دامس بأي لحظة.

بعد أن تعلم أهالي جومنداس المهن الحرفية بقواعدها الصحيحة من معلمي موراشد ، أمر دامس بتعليمهم صناعة المعدات الحربية ، ثم صناعة آلاتها ، ولم ينسَ أن يأمر بطباعة نسخ من كتابَيه اللذَين قام بتأليفهما بموراشد، وتوزيعها لكل أهالي جومنداس ، وبعدَ أن لمَس حب أهالي المدينَتَين لبعضهما ، أعلنَ أنَّ جومنداس وموراشد مدينة واحدة تحمل اسم راشنداس .